الشـــذوذ

للأستاذ الجليل الشيخ عبد الخالق عمر
أستاذ اللغة العربية بدار العلوم

وقاك الله معايبه ، وجنبك سوء مغبته ! أينما بحثت عنه فى كتب اللغة ، لا تجد معناه إلا التفرد عن الجمهور ، والخروج عليه ، والمجىء بالنادّ من القول . قال فى اللسان : شذ عنه يشذ شذوذاً : انفرد عنه وندر ، ثم قال : وشذّاذ الناس الذين يكونون فى القوم ليسوا فى منازلهم ولا حيهم . ثم ذكر ما يأتى : وسمى أهل النحو ما فارق ما عليه بقية بابه وانفرد عن ذلك إلى غيره : شاذاً . وقال فى آخر الحرف : ويقال : أشذذت يا رجل : إذا جاء بقول شاذ ناد ، أى عن المألوف » .

فترى مما تقدم أن الشذوذ يكاد يكون خروجاً عن إلف العادة ، وابتعاداً عما تواضع عليه الناس ، ونفوراً مما أقرته التقاليد .

وأقول : إن الشذوذ فى كل مظاهره مصحوب بمقت الذى يشذ ، والاشمئزاز منه ، وهل ترى الناس يجمعون على أمر يرونه الرأى ، ثم يخرج عليهم خارج منهم فيكون محبوباً أو محترماً ؟ ألا إن المقت والاشمئزاز أقل مايجازى به الشاذ .

على أن الشذوذ قد يكون مظهراً من مظاهر السخف والحمق ، فيرى الشاذ أن مايفعله الحق ، وغيره بمنجاة عن الصواب . وهذا الشاذ أخف من سابقه وطأة ، وأهون احتمالا . فإنه يكون من الناس موضع السخرية والاستهزاء . لا موضع المقت والازدراء . على أن صاحب هذا الضرب من الشذوذ لم يأت بشىء يضر جمهوره ، ويغض من قدره ، وإنما جاء بما خيله إليه عقله الصغير ، وصوره له شيئاً عظيما .

كنت أريد أن أطيل القول فى الشذوذ ، وأذكر منه أنواعاً وأحوالا وأعرف بنفر من الشذاذ طالما آلمت منهم ، ورثيت لعقلهم ، وكنت أريد أن أترك قلمى يأتى على ذكر طائفة ، كان جمهورهم يطمع فى الانتفاع بهم فشذوا وبعدوا عما

أراده جمهورهم ، سعياً وراء نفع أنفسهم ، مطوحين بهذا الجمهور ، ضاربين به عرض الحائط ، غير مبالين بما يكون ، ما داموا هم كما يبتغون . قاتلهم الله أنى يؤفكون ! كنت وكنت ولكنى لا أكون ... وأقف عند هذا الحد من القول ، وإلا حسبنى الشذاذ شاذا مثلهم .

وإنما حدا بى إلى الكلام فى الشذوذ ما قرأته فى معجم الأدباء عن فريق من الأدباء ، كان يغلب عليه شيطان الشذوذ ، فيأتى بما يضحك منه الناس ، أو يتقمونه منه ، ولله فى خلقه شئون . وقد مر بى من هؤلاء كثير سآتى على نبذ من شذوذهم وإليك القول :

أبو علقمة النحوى

إذا تتبعت أخبار أبى علقمة رأيتها كلها حياة شذوذ عند ما يقول ، فلن ترى فى أخباره إلا شاذ القول وغريبه ، حتى فى موضع الغزل الذى هو مدعاة الرقة فى القول . قال ياقوت :

وقال أبو أحمد بن خليفة الجمحى قال : سمعت أبى يحدث عن أبيه قال : قال أبو علقمة لغلام له : خذ من غريمنا (١) هذا كفيلا (٢) ، ومن الكفيل أميناً ، ومن الأمين زعيما ، ومن الزعيم غريما . فقال الغلام للغريم : مولاى كثير الكلام ، فمعك شىء ؟ فأرضاه وخلاه . فلما انصرف قال : يا غلام ، ما فعل غريمنا ؟ قال : سُقِع . قال : ويلك ماسقع ؟ قال بُقِع . قال : ويلك وما بقع ؟ قال استقلع . قال : ويلك ما استقلع ؟ قال : انقلع . قال : ويلك ، لم طوالت على ؟ قال : منك تعلمت .

وقال الهيثم بن عدى : ركب أبو علقمة بغلا ، فوقف على أبى عبد الرحمن القرشى ، فقال : يا أبا علقمة ، إن لبغلك هذا منظراً ، فهل مع حسن هذا المنظر من خير ؟ قال : سبحان الله ! أو ما بلغك خبره ؟ قال : لا . قال : خرجت عليه مرة من مصر ، ففقزنى قفزة إلى فلسطين ، والثانية إلى الأردن ، والثالثة إلى دمشق ، فقال له أبو عبد الرحمن : تقدم إلى أهلك يدفنوه معك فى قبرك ، فلعله يقفز بك الصراط .

(١) اسم يقع على الدائن والمدين ، والمراد هنا الثانى ، وجمعه غرماء ، ويقع على الخصم أيضاً .
(٢) الكفيل : من يتكفل بأداء دين المدين ، أى الضامن والمكفول له : هو الدائن .

بشر بن حجر : قال : انقطع إلى علقمة النحوي غلام يخدمه، فأراد أبو علقمة الدخول في بعض حوائجه . فقال له : ياغلام ، أصقعت العناريف ؟ فقال له الغلام : « زقفيلم » قال أبو علقمة : وما زقفيلم ؟ قال له : وما معنى : صقعت التعاريف ؟ قال : قلت لك : أصاحت الديوك ؟ قال : وأنا قلت لك : لم يصح منها شيء .

قال ابن المرزبان : حدثني عبد الله بن مسلم : دخل أبو علقمة النحوي على أعين الطبيب ، فقال له : أمتع الله بك ، إني أكلت من لحوم هذه الجوازل [1] فطسأت طسأة [2] فأصابني وجع بين الوابلة [3] إلى دأية [4] العنق ، فلم يزل ينمى حتى خالط الحلب [5] وألمت له الشراسيف [6] فهل عندك دواء ؟ قال أعين : خذ حرقفاً وسلقفا وشرقفا ، فزهزقه ورقرقه ، واغسله بماء روث ، واشربه بماء الماء . فقال أبو علقمة : أعد (ويحك) على فأني لم أفهم عنك ، قال له أعين : لعن الله أقلنا إفهاما لصاحبه ، ويحك ! وهل فهمت عنك شيئاً مما قلت ؟

قرأت في كتاب النوادر الممتعة جمع ابن جني عن محمد بن المرزبان قال : حدثني عبد الله بن أحمد بن عبد الصمد قال : حدثني محمد بن معاذ البصري قال : بينا أبو علقمة النحوي يسير على بغلة إذ نظر إلى عبدين : أحدهما حبشي ، والآخر صقلي ، فإذا الحبشي قد ضرب بالصقلي الأرض ، وأدخل ركبتيه في بطنه . وأصابعه في عينيه ، وعض أذنيه ، وضربه بعصا كانت معه فشجه ، وأسال دمه ، فجعل الصقلي يستغيث فلا يغاث ، فقال لأبي علقمة : اشهد لي ، فقال : قدمه إلى الأمير حتى أشهد لك . فمضيا إلى الأمير ، فقال الصقلي : إن هذا ضربني وشجني واعتدى علي . فجحد الحبشي ، فقال الصقلي : هذا يشهد لي . فنزل أبو علقمة عن بغلته ، وجلس بين يدي

(١) الجوزل : فرخ الحمام قبل أن ينبت ريشه . والجوزل أيضا ناقة تقع هزالا ، وربما قيل للشاب جوزل والجمع جوازل . أقول وأنا رأيتها مرة الجوازى . وهي لحوم الوحش .

(٢) طسأ من باب فتح : اتخم من الشبع أو من الدسم .

(٣) طرف رأس العضد والفخذ ، أو طرف الكتف .

(٤) الدأية والدأى : فقر الكاهل والظهر .

(٥) الحلب : لحيمة رقيقة تصل بين الأضلاع .

(٦) الشرسوف : غضروف معلق بكل ضلع ، وهو الطرف المشرف على البطن .

الأمير ، فقال له الأمير : ثم تشهد يا أبا علقمة ؟ فقال: أصلح الله الأمير إنما أنا أسير على كودى هذا ، إذ مررت بهذين العدين . فرأيت هذا الأسحم قد مال على هذا الأبقع، فظأه على فدفد . ثم ضغطه برضفتيه فى أحشائه ، حتى ظننت أنه تدمج حوفه ، وجعل يلج بشناتره فى جحمتيه يكاد يفقؤهما ، وقبض على صنارتيه بميرمه ، وكاد يجذهما جذا ، ثم علاه بمنسأة كانت معه . فعفجه بها ، وهذا أثر الجريال عليه بينا . وأنت أمير عادل . فقال الأمير : والله ما أفهم عما قلت شيئا. فقال أبو علقمة : قد فهمناك إن فهمت ، وعلمناك إن علمت ، وأديت إليك ماعلمت ، وما أقدر أن أتكلم بالفارسية . فجعل الأمير يجهد أن يكشف الكلام فلا يفعل ، حتى ضاق صدره . فقال للصقلى : أعطى خنجرا ، فأعطاه وهو يظن أنه يريد أن يستقيد(١) له من الحبشى ، فكشف الأمير رأسه، وقال للصقلى: شجنى خمسا، وأعفنى من شهادة هذا . الصنارتان : الأذنان بلغة حمير . الكودن :الغليظ من الدواب . مطأه : صرعه . والفدفد : الغليظ من الأرض . ورضفتاه :ركبتاه. شناتره : أصابعه . والجحمتان :العينان لغة يمانية . والمنسأة : العصا . عفجه : أى ضربه بها . والجريال : الأحمر فاستعاره الدم .

على هذا النمط من الإغراب كان أبو علقمة ، وقد أتى بأقوات على شىء كثير من قوله ، اكتفيت منه بهذا القدر، ولم يذكر شيئا عن حياته سوى أنه قال : أراه من أهل واسط .

وفى رأيى أن هذا كان خلطا منه لخبل فى عقله ؛ إذ كانت تعتريه مرة فيصرع منها ، ويغيب عن وجوده ، وهو الذى صُرع وقال القول الذى يستشهد به فى كتب اللاغة : (مالكم تكأكأتم على كتكأكئكم على ذى جنة ؟ افرنقعوا .)

ومن الشذاذ الذين هم على ، شاكلة أبى علقمة : أبو سليمان يحيى بن يعمر العدوانى ، وهو رجل من عدوان بن قيس بن عيلان من مضر ، وكان عالما بالعربية والحديث. ولقى عبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس وغيرهما من الصحابة، وروى عنه قتادة ، وكان من الفصحاء، وكان قد ولاه يزيد بن المهلب القضاء

(١) أى يقتص له

بخراسان . فقال له يوما : هل تشرب النبيذ ؟ فقال : ماأدعه فى صباحى ومسائى، فقال له : أنت ونبيذك ، وعزله عن القضاء . ويروى أن الحجاج بن يوسف قال له: أتجدنى ألحن ؟ فقال : الأمير أفصح من ذلك ، فقال : عزمت عليك ، أتجدنى ألحن ؟ فقال يحيى : نعم. فقال له: فى أى شىء ؟ فقال : فى كتاب الله تعالى . فقال: ذلك أشنع ، ففى أى شىء من كتاب الله تعالى ؟ قال: قرأت « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله » فرفعت أحب وهو منصوب . فقال له الحجاج : طول لحيتك أوقعك — وكان طويل اللحية — فقال رجل ممن حضر : أيها الأمير ، حدثنى كعب الأحبار : أنه مكتوب فى بعض الكتب . أن اللحية مخرجها من الدماغ ، فمن تفرط عليه لحيته فى طولها يخف دماغه ، ومن خف دماغه قل عقله ، ومن قل عقله كان أحمق ، والأحمق لا يسمع منه . فقال الحجاج: لا تساكنى ببلد أنا فيه ، ونفاه إلى خراسان، وبها يزيد بن المهلب فكان عنده .

قال محمد بن سلام : أخبرنى أبى أن يزيد بن المهلب كتب إلى الحجاج : إنا لقينا العدو ففعلنا وفعلنا. واضطررنا إلى عرعرة[1] الجبل . فقال الحجاج : مالابن المهلب وهذا الكلام . فقيل له : إن يحيى بن يعمر عنده ، فقال : ذاك إذن .

وكان يستعمل الغريب فى كلامه ، فمن ذلك أنه قال لرجل خاصمته امرأته :أتن سألتك ثمن شكرها وسرك ، أنشأت تمطلها وتضلها ؟

« الشكر : الفرج ، والسر : النكاح » ويروى : وشبرك ، والشبر العطاء .

وخاصم رجل رجلا فى غلام فقال : باعنى غلاما أباقا ، فقال له يحيى : ألا قلت : أبوقا . ومات يحيى بن يعمر بخراسان سنة تسع وعشرين ومائة ، فى أيام مروان بن محمد .

ومن الشذاذ أيضا : عيسى بن عمر الثقفى ، وكنيته أبو سليمان ، ويقال أبو عمرو ، وكان ثقة عالما بالعربية والنحو والقراءة ، وقراءته مشهورة ، وكان فصيحا يتقعر

(١) عرعرة السنام وكل شىء : رأسه ومعظمه

فى كلامه و يعدل عن سهل الألفاظ إلى الوحشى والغريب . فمن ذلك أنه لما ضربه يوسف بن عمر بن هبيرة فى ثياب استودعها ، قال : إن كانت إلا أثيابا فى أسيفاط قبضها عشاروك ، وذلك أن بعض أصحاب خالد بن عبدالله القسرى أودعه وديعة ، فلما نزع خالد بن عبدالله عن إمارة العراق ، وتقلد مكانه يوسف بن عمر ، كتب إلى واليه بالبصرة أن يحمل إليه عيسى بن عمر مقيدا . فدعا به ودعا بالحداد ، وأمره بتقييده وقال : لا بأس عليك . إنما أراد الأمير أن تؤدب ولده قال : فما بال القيد إذن ؟ فبقيت مثلا بالبصرة . فلما أتى به يوسف بن عمر سأله عن الوديعة فأنكرها ، فأمر به فضرب بالسياط ، فلما أخذه السوط جزع ، فقال : أيها الأمير ، والله إنما كانت أثيابا فى أسيفاط قبضها عشاروك ، فرفع عنه السوط ، ووكل به من أخذ الوديعة منه .

وقال على بن محمد بن سليمان : رأيت عيسى بن عمر طول دهره يحمل فى كمه خرقة ، يحمل فيها سكر العُشَر والإجاص اليابس . العشر بضم العين وفتح الشين : شجر فيه حراق لم يفتدح الناس فى أجود منه ويحشى فى المخاد يخرج من زهره وشعبه سكر ، وفى القاموس سكره فيه مرارة ، والإجاص بكسر الهمزة وتشديد الجيم : ثمر معروف ،

وربما رأيته واقفا عندى أو سائرا أو عند ولاة أهل البصرة ، فتصيبه نهكة على فؤاده فيخفق عليه . حتى يكاد يغلب ، فيستغيث بإجاصة وسكر يلقيهما فى فمه ، ثم يمتصهما . فإذا ازدرد من ذلك شيئا سكن عليه ، فسألته عن ذلك فقال : أصابنى هذا من الضرب الذى ضربنى يوسف بن عمر ، فعالجته بكل شيء ، فلم أجد له أصلح من هذا ، وصنف كتابين فى النحو سمى أحدهما الجامع . والآخر الإكمال ، وفيهما يقول الخليل بن أحمد ـ وكان الخليل بن أحمد قد أخذ عنه ـ

ذهب النحو جميعا كله غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقمر

وتوفى سنة تسع وأربعين ومائة .

وعلى نسق هؤلاء كان سعد بن محمد بن سعد المعروف بالحيص بيص ، إلا أن هذا كان يفعل ما يفعل تعاظما وتيها ، لا خبلا وجنونا ، فإن له شعرا ونثرا

لا إغراب فيهما وسآتى فى هذا المقال على شىء من خبره وحديثه ، مما ذكره ياقوت فى معجم الأدباء وابن خلكان فى وفيات الأعيان .

قال ياقوت : سعد بن محمد بن سعد بن الصيقى التميمى ، شهاب الدين أبو الفوارس المعروف ، بحيص بيص ، الفقيه الأديب الشاعر ، كان من أعلم الناس بأخبار العرب ولغاتهم وأشعارهم . أخذ عنه الحافظ أبو سعد السمعانى ، وقرأ عليه ديوان شعره وديوان رسائله ، وذكره فى ذيل مدينة السلام . وأثنى عليه . وأخذ الناس عنه علما وأدباً كثيراً . وكان لايخاطب أحداً إلا بكلام مغرب . وإنما قيل له حيص بيص لأنه رأى الناس يوماً فى أمر شديد . فقال : ما للناس فى حيص بيص ؟ فبقى عليه هذا اللقب .

مات ليلة الأربعاء سادس شعبان ، سنة أربع وسبعين وخمسمائة ببغداد .

ومن تقعر الحيص بيص فى كتابته ، ما حدث به بعض أصحابه : أنه نقه من مرض ، فوصف له صاحبه هبة الله البغدادى الطبيب أكل الدُّرّاج ، فمضى فاشترى دراجا ، واجتاز على باب أمير ، وغلمانه يلعبون . فخطف أحدهم الدراج ، فأتى الغلام الحيص بيص وأخبره الخبر . فقال له : إيتنى بدواة وقرطاس . فأتاه بهما فكتب إلى ذلك الأمير : لو كان مبتز دراجة فتخاء [1] كاسر [2] ، وقف بها السغب بين التدويم [3] والتمطر ، فهى تعقى [4] وتسف ، وكان بحيث تنقب أخفاف الإبل : لوجب الإغذاذ [5] إلى نصرته ، فكيف وهو بجبوحة كرمك ، والسلام . ثم قال لغلامه : امض بها وأحسن السفارة بإيصالها الأمير فمضى بها ودفعها للحاجب ، فدعا الأمير بكاتبه ، وناوله الرقعة فقرأها ، ثم فكر

---

(١) فتخاء . الفتخ : عرض الكف والقدم

(٢) كاسر من كسر الطير جناحيه : ضمهما يريد الوقوع

(٣) تدويم الطائر : تحليقه فى الهواء أو كطيرانه بدون أن يحرك جناحيه . والتمطر : اسراعه فى هويه

(٤) تعقى : تحوم حول الشىء وترتفع ، وتسف : تمر على وجه الأرض

(٥) الإغذاذ : الإسراع

ليعبر له عن المعنى ، فقال له الأمير : ما هو ؟ فقال : مضمون الكلام : أن غلاما من غلمان الأمير . أخذ دراجا من غلامه . فقال : اشتر له قفصاً مملوءاً دراجا واحمله اليه ، ففعل .

و كتب إلى أمين الدولة ابن التلميذ يطلب منه شياف أبار (١) : أزكنك (٢) أيها الطَّب (٣) اللَّب ، الآسى (٤) النطاسى ، النفيس النقريس (٥) ، أرجنت (٦) عندك أم خنور (٧) ، وسكعت عنك أم حَبَوْكر (٨) ، أنى مستاً خذ أشعر ، فى حنادرى (٩) رطبا (١٠) ليس كلب شبوة (١١) ولا كنخز المنصحة (١٢) ، ولا كنكز الحضب (١٣) بل كسفع (١٤) الزخيخ . فأنا من التباشير إلى الغباشير (١٥) لا أعرف ابن سمير (١٦) من ابن جمير ، ولا أحس صفوان (١٧) من همام ، بل آونة أرجحن (١٨) شاصبا (١٩) ، وفينة

(١) شياف الأبار : دواء للعين .
(٢) أزكنك : أعلمك .
(٣) الطب : الحاذق فى عمله ، واللب : الملازم لعمله المقيم عليه .
(٤) النطاسى : العالم والمتطبب .
(٥) النقريس : الطبيب المدقق .
(٦) أرجنت : أقامت .
(٧) أم خنور : الدنيا .
(٨) الداهية
(٩) حنادرى جمع حندورة وهى : سواد العين .
(١٠) رطبا : دمعا .
(١١) شبوة : علم على العقرب .
(١٢) المنصحة : الابرة .
(١٣) كنكز الحضب : كلسع الحية .
(١٤) سفع الزخيخ : الاصطلاء بالجمرة .
(١٥) الغباشير : مابين السحر والمساء ، ومابين الغروب والعشاء من الضوء .
(١٦) ابنا سمير : الأجدان ، وابنا جمير : الليل والنهار ، يقول : لا أعرف الليل من النهار ، ويقال ابن سمير وابن جمير بهذا المعنى .
(١٧) يوم صفوان : بارد ، وهمام : يوم البرد الثالث .
(١٨) ارجحن : اهتز .
(١٩) عيش شاصب : شاق .

أحنطى (١) مقلوليا (٢) ، وتارة أعرنزم (٣) ، وطورا أسلنقى (٤) ، كل ذلك مع أخ وأخ وتهم قرونتى (٥) أن أرفع عقيرتى بعاط عاط (٦) إلى هياطوم ياط (٧) ، وهالى أول (٨) وأهون وجبار ودبار ومؤنس وعروبة وشيار (٨) ، ولا أحيص (٩) ولا أليص (١٠) ولا أغرندى ولا أسرندى (١١) ، فبادرنى بشياف الآبار ، النافع لعلتى الناقع لغلتى .

فلما قرأ أمين الدولة رقعته ، نهض لوقته ، وأخذ حقنة شياف أبار . وقال لبعض أصحابه : أوصلها إليه عاجلا ، ولا تتكلف قراءة ورقة ثانية .

ومن شعره يمدح المقتفى لأمر الله :

ماذا أقول إذا الرواة ترنموا ... بفصيح شعرى فى الإمام العادل
واستحسن الفصحاء شأن قصيدة ... لأجل ممدوح وأفصح قائل
وترنحت أعطافهم فكأنما ... فى كل قافية سلافة بابل
ثم انثنوا غب القريض وصنعه ... يتساءلون عن الندى والنائل
هب يا أمير المؤمنين بأننى ... قس الفصاحة ما جواب السائل ؟

ودخل ابن القطان يوما على الوزير الزينبى ، وعنده الحيص بيص فقال : قد عملت بيتين هما نسيج وحده ، وأنشد :

---

(١) أحنطى : امتلأ غيظا .
(٢) مقلوليا : قلقا متجافيا عن محلى .
(٣) أعرنزم : أتجمع وأنقبض .
(٤) أسلنقى : أنبسط على ظهرى .
(٥) القرونة : النفس .
(٦) عاط عاط : زجر للذئب وللخيل وينذر بهما الرقيب أهله إذا رأى جيشا
(٧) اضطراب ومجىء وذهاب وشر وجلبة .
(٨) هذا الاسم وما تقدمه أسماء أيام الأسبوع فى الجاهلية ، وقد جمعها الشاعر فى قوله
علمت بأن أموت وان موتى ... بأوهد أو باهون أو جبار
أو التالى دبار وإن يفتنى ... فمؤنس أو عروبة أو شيار
فأوهد : الأحد ويقال له : أول ، وأهون الاثنين ، وجبار : الثلاثاء ، ودبار الأربعاء ، ومؤنس : الخميس ، وعروبة : الجمعة ، وشيار كسحاب : السبت
(٩) لا أحيص : لا أعدل ولا أحيد .
(١٠) لا أليص : لا أجبن ولا أضعف .
(١١) ولا أغرندى : لا أعلو ، ولا أسرندى : بمعناها فهى إتباع .

زار الخيال بخيلا مثل مرسله فما شفانى منه الضم والقبل
ما زارنى قط إلا كى يوافينى على الرقاد فينفيه ويرتحل

فقال الوزير للحيص بيص : ما تقول فى دعواه هذه ؟ فقال : إن أنشدهما ثانية سمع لهما ثالثا . فانشدهما . فقال الحيص بيص :

وما درى أن نومى حيلة نصبت لطيفه حين أعيا اليقظة الحيل

وحدث نصر الله بن مجلى قال : رأيت فى المنام على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ، تفتحون مكة فتقولون : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن . ثم يتم على ولدك الحسين يوم الطف ما تم ؟ فقال : أما سمعت أبيات ابن الصيقى فى هذا ، فقلت : لا ، فقال : اسمعها منه . فلما استيقظت بادرت إلى دار الحيص بيص ، فخرج إلىّ ، فذكرت له الرؤيا ، فأجهش بالبكاء ، وحلف بالله أنه ما سمعها منه أحد ، وأنه نظمها فى ليلته هذه ، ثم أنشدنى :

ملكنا فكان العفو منا سجية فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتم قتل الأسارى وطالما غدونا عن الأسرى نعف ونصفح
فحسبكم هذا التفاوت بيننا وكل إناء بالذى فيه ينضح

ومن شعره أيضا :

العين تبدى الذى فى قلب صاحبها من الشناءة أو حب إذا كانا
إنّ البغيض له عين تكشفه لا تستطيع لما فى القلب كتمانا
فالعين تنطق والأفواه صامتة حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

وقد ترجم للحيص بيص فى كتاب وفيات الأعيان ، وجاء فى ترجمته ما يأتى : ويقال إنه كان فيه تيه وتعاظم ، وكان لا يخاطب أحدا إلا بالكلام الغريب ، وكانت له حوالة بمدينة الحلة ، فتوجه إليها لاستخلاص مبلغها ، وكانت على ضامن الحلقة ، فسير غلامه إليه ، فلم يخرج إليه . وشتم أستاذه ، فشكاه إلى والى الحلة ، وهو يومئذ ضياء الدين مهلهل بن أبى العسكر الجاوانى ، فسير معه بعض غلمان الباب ليساعده ، فلم يقنع أبو الفوارس منه بذلك . فكتب إليه يعاتبه — وكانت بينهما مودة متقدمة — : ما كنت أظن أن صحبة السنين ومودتها ، يكون

مقدارها فى النفوس هذا المقدار ، بل كنت أظن أن الخيس الجحفل . لو عرض لى ، لقام بنصرى من آل أبى العسكر حماة غُـاب الرقاب ، فكيف بعامل سويقة وضامن حليلة وحليقة ، ويكون جوابى فى شكواى : أن ينفذ إليه مستخدم يعاتبه ، ويأخذ ماقبله من الحق ، لا والله

إن الأسود أسود الغاب همتها يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب

وبالله أقسم ، وبنيه وآل بيته لئن لم تقم لى حرمة ، يتحدث بها نساء الحلة فى أعراسهن ومناجاتهن ، لأقام وليك بحانك هذه ، ولو أمسى بالجسر والقناطر ، هبنى خسرت حمر النعم ، أفأخسر أبيتى ؟ واذلاه ! واذلاه ! والسلام .

وكان يلبس زى العرب . ويتقلد سيفا . فعمل فيه أبو القاسم بن الفضل — وذكر العماد الكاتب فى الخريدة أنها للرئيس على بن الأعرابى الموصلى . وذكر أنه توفى سنة سبع وأربعين وخمسمائة — :

كم تبادى(١) وكم تطول طرطو رك مافيك شعرة من تميم
فكل الضب واقرص الحنظل البا بس واشرب ما شئت بول الظليم
ليس ذا وجه من يضيف ولا يقـ ـرى ولا يدفع الأذى عن حريم

فلما بلغت الأبيات أبا الفوارس المذكور عمل :

لاتضع من عظيم قدر وإن كـ ـنت مشارا إليه بالتعظيم
فالشريف الكريم ينقص قدرا بالتعدى على الشريف الكريم
ولع الخمر بالعقول رمى الخمـ ـر بتنجيسها وبالتحريم

وعمل فيه خطيب الحويزة البحيرى :

لسنا وحقك حيص بيـ ـص من الأعارب فى الصميم
ولقـد كذبت على بحيـ ـر كما كذبت على تميم

وإنما قيل له حيص بيص لأنه رأى الناس يوما فى حركة مزعجة ، وأمر شديد فقال : ماللناس فى حيص بيص ؟ فبقى عليه هذا اللقب ، ومعنى هاتين الكلمتين : الشدة والاختلاط . ويقول العرب وقع الناس فى حيص بيص : أى فى شدة واختلاط . ودفن فى الجانب الغربى فى مقابر قريش (رحمه الله تعالى) .

عبد الخالق عمر

(١) يريد التظاهر بالبداوة والتشبه بأهلها .